دلالة رموز الطبيعة عند جبران خليل جبران

د. جدي فاطمة الزهراء
كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة جيلالي اليابس (سيدي بلعباس)

الطبيعة

إن طبيعة بشرى وما حولها، في نقائها وصفائها وألوانها وأنغامها، وعطورها وعنفها وكذا خصائص هذه القرية المحافظة من حيث بساطة العيش والتقاليد الدينية والإقطاعية المتصلة اتصالا حميما بالحياة اليومية معقلا للموازنة، وكان لخصائص المنطقـــة بعض التأثير انعكس في إنتاج جبران الأدبي، كالغابة والنهر والجبل والكنائس والأديرة وما كان ينبعث من الأصوات منها، وكانت المدرسة الرهبانية "**دير مارسر كيس**" وهي عبارة عن فجوة مشرفة على واد قاديشا حيث في هذه الغرفة ســـاكن جبران الطبيعة البكر، وهي محفورة حفرا في قلبه فهو يقول " هناك سنعتزل العالم يا ميشا وسنحلم ما طاب لنا أن نحلم، وسنكتب ما شئنا أن نكتب ....وسنعمل في الأرض فنحول اليابس منها أخضر، والقاحل خصبا وستباركنا الرياح وتفرح بنا الشمس ويحمل إلينا الوادي أنفاسه الملهمة". (1)

إن جبران أشد الكتاب، تحسسا بروعة الطبيعة المتجلية في الجبال والحقول وفي حياة الرعاة فقد كان اغترابه عن قريته سببا في جعل الطبيعة، معينا سخيا يعب منه ثقافته الفطرية وتأثراته بالإضافة إلى كونه خميرة وحيه، فالذكريات التي يحملها عن مراتع الصبا، هي في الواقع حمى الحنين المجسدة في أناشيد صافية تنطلق من أعماقه، فلقد هام حبا بموطنه الصغير لبنان وظلت مفاتن الطبيعة التي نشأ فيها تملأ حواسه، وذكرياتها مخطوطة في خياله، وفي هذا نجده يقول "الأشياء التي يحبها الطفل تبقى مطبوعة بين أعشار قلبه حتى الشيخوخة وأجمل ما في هذه الحياة هو أن أرواحنا تبقى مرفوعة فوق الأماكن التى تمتعنا بها بشيء من اللذة".(2)

في بشرى فتح قلبه على الحب، وعشق الحرية والجمال في رحاب الطبيعة، وإلى هذا أشار مارون عبود في قوله عن جبران "إنه في تأليفه العربية لبناني محض، بل إقليمي حتى في أسماء بعض أبطال قصصه وأماكنها، ولا بد للراغب في فهم جبران فهما تاما من زيارة الاقليم الذي نشأ فيه" (3).

الطبيعة في رومانسية جبران، طبيعة حسية ونفسية، واقعية ومادية وخيالية وشعورية، إذ كانت مركز الثقل في تفكيره، وظل موصولا بروحه إلى طبيعته الأم وهو يحيا في دوامة العالم الجديد المليء بدخان المصانع وزحمة الناس، فكل هذه المؤثرات المحيطة به أدت إلى رد فعل جعلته ينمو بجدلية خفية في نفس جبران، فكان من المعقول أن يتوق إلى الطبيعة وإلى البساطة والهواء الطلق وسنفونية العطور والأنعام والألوان: "وأنا أيضا أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان، فما أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأدوية المملوءة سحرا وهيبة ولا صممت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا سمعت خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون"(4).

والطبيعة هي نجية العاشقين، تبتسم لنشوتهم وتقاسي آلامهم، ومنها انطلق جبران إلى الحقائق الكونية، وجعلها أيضا موضوعا لنسج قصصه وخواطره وكانت ملاذا يعكس حالة نفسية من حالاته، فقد كان يلم في كل منها الطبيعة في أوصاف ذهولية رائعة، فقد أيقظ الطبيعة التى ماتت في كثير من الكتب، لينقلها إلينا في أحلى صورة شعرية تكشف عن نقاب لطيف يخفي روح الرؤى وأعماق الأخيلة.

والطبيعة كما رآها جبران، ليست إطارا خارجيا ينشط الإنسان في نطاقه، وليست مجرد مرآة عاكسة لحالات نفسية، بل هي كائن حي قائم بذاته وكيفما أطلق جبران خياله في جو الطبيعة رأى كل ما فيها يشع حياة، فالبحر روح والشمس قلب وللنرجس دموع وللطير حنين فطبيعة بلاده فريدة من نوعها كونها "مستودع التاريخ المقدس"[5] :"كأنها أسرار نقلتها الأرض للسماء وأشجارها اللوز والتفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة بانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعتت بهن الطبيعة عرائس"[6].

وكأن الربيع روح إله تستأنس بأرواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء مترنمة بأناشيد سليمان مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد القديم، لبنان خليل محصورة في روحه الشرقية التواقة إلى الانغماس في حلم الطبيعة، التي كانت بسحرها وعواصفها ونسماتها خميرة طفولته، هكذا ينطلق جبران من الانبهار الحسي بروعة الطبيعة التي كانت مسرحا لجميع شخصيات الأدبية

مصورا بذلك أروع اللوحات الجمالية، فقد أحب الطبيعة بغضبها حين تعصف وتزلزل وتدمر المنازل على ساكنيها، وتستمر أما حنونا وينبوع الحب والسخاء ولما أرعبت الطبيعة الطفل هونت عليه الأرملة من هولها قائلة: "لا تجزع يا بني فالطبيعة تريد أن تعظ الإنسان مظهرة عظمتها تجاه صغره ... فمن وراء الثلوج المتساقطة والغيوم المتلبدة والرياح العاصفة روح قدس كلي عالم بما تحتـــاج إليه الحقول والأكام، فالطبيعة التي ابتسمت في الربيع وضحكت في الصيف، وتأوهت في الخريف تريد أن تبكي الآن، ومن دموعها الباردة تستقي الحياة الرابطة تحت أطباق الثري" [7].

الرموز

لقد كان جبران رومانسيا في كثير من كتاباته ، فأخذ يتعمق أفكاره عن الطبيعة لأنه وجد نفسه وصورها فيها، وكانت غذاء روحه الذي تمثله في تجاربه الذاتية التي استقاها من عصره فأعاد صياغة ملاحظاته وأفكاره وتأملاته، ليبدع أدبا فيه رقة ونداوة وأعمق ما يكون سحرا وأروع ما يكون صدقا وإخلاصا.

إن هذه المنطلقات الرومنطيقية ولدت عند جبران ميلا الى أسلوب الايحائي الذي يعتمد الرمز ونفورا من الأسلوب التحليلي الذي يعتمد بساطة الوضوح.

وسئل جبران مرة من طرف أحد ضيوف ماري هاسكل عن طراز الكتابة فقالت: إني أسمع في كلامك ما أراه في صورك يا مستر جبران، وقد قلت إنك تكتب بلغتك العربية، فهل طرازك في الكتابة مثل طرازك في التصوير؟ ولماذا اخترت هذا الطراز؟[8]

يرد جبران " لعله اختارني و لم أختره...عندما بدأت بالتصوير لم أقل لنفسيي: هو ذا الطريق الكلاسيكية أو الحديثة أو الرمزية أو كثير سواها فاختر لك واحدة منها بل شعرت إلا وقلمي يرسم رموزا لما يجول في خاطري من خيالات وأفكار وعواطف يحسب البعض الفن في تقليد الطبيعة والطبيعة أعظم من أن تقلد ومهما تسامى الفن لا يأتي بمعجزة من معجزاتها " [9]فالرمز الكلامي يكاد يشكل عنده وسيلة رئيسية للبوح فنيا عن أفكار فلسفية.

فاغتراب الفنان عن المجاري العادية للحياة يدفعه الى تلمس الأشياء من بعيد، وهذا ما يفسر لنا ميله إلى الإيحاء الرمزي، وهذا أمر طبيعي يرى جميل جبر: "فقد هام منذ صباه بالديانات القديمة وأسرارها وبطقوسها وبالأساطير والرموز"[10]، فجذروه المشرقية كانت صدى يتردد في خياله فيقود فكره وقلمه في تيار الأسلوب الايحائي، ونرى المؤلف عدنان الذهبي يقول أن "الرمزية عند جبران ليست نزوة عابرة كالتي عهدناها عند من سبقه من الأدباء والشعراء بخاصة عند العرب منهم، في فنيتهم البعيدة عن التمذهب الغربي فلقد عهدناها عند هؤلاء في التشبيهات والاستعارات الرمزية الطارئة في الأسلوب هي عند جبران تمذهب روحي وفكري قد عاشه هذا الأديب الموهوب وبشر به في الأدب المعاصر"[11]

ويرى جميل جبر أن "المدرسة الرمزية التي نسبه إليها بعضهم إسنادا إلى مجازيه تعبيره أو ضبابيته فقد ظل بعيدا عنها لأنه شاعر القلب والخيال، يقدسهما ويسلطهما على العقل ويؤمن بالإلهام"[12].

وكثير ما يلجأ الرمزيون إلى الإيقاع كغاية ولا يرون ضرورة في فهم الشعر، فيكتفون بالإيحاء النغمي بينما جبران يلجأ إلى الإيقاع كوسيلة تعبير متولد على صفاء المزاج وقوة مادة النور في النفس، وربما هذا ما أحسه جبران، من خلال مراقبته للعالم الخارجي في أدق تفاصيله وبقدر من الذكاء الخارق استطاع أن يفهم أبعد المعاني لأدق الحوادث، بمخيلة خصبة مثيرة للإعجاب تقفز في الوعي قفزا محركة بذلك طاقة مكبوتة من مشاعر الحنان والحب والعطف.

ولا يخفي أن الرموز والصور الدينية والأساطير ينبع أهمها من شعور انساني عميق يستمر حيا في اللاوعي وهذا ما اكتشفه **يونغ** أحد تلاميذ فرويد من خلال نظريته **اللاشعور الجمعي** ووجد أن الحياة العقلية تتكون من اللاوعي الفردي واللاوعي الجماعي، فاللاوعي الفردي هو أساسا محتويات كانت في وقت من الأوقات شعورا، لكنها اختفت بالكبت أو بالنسيان كحكايات الطفولة، ففي أعماق كل إنسان أثار طفولية أو بدائية يرجع إليها في اضطرابه ليستعيد توازنه المفقود فيأتلف مع ذاته لكن الأهم في كل ذلك، أن الرموز والصور الدينية والأساطير مشتركة بين البشر على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وحضاراتهم، ويشكل مجموعها تراث ذهنيا خصبا يرتوي منه الدماغ البشري بفعل الوراثة، وقد وجد جبران ضالته في كل هذا وراح يستصيغ جوهر إبداعاته ليحرك صورا رامزا ومعبرا عن ذاتيته العاطفة الفردية "وأتقن مخاطبة اللاوعي بالوعي"[13] على حد قول المؤلف جميل جبر وطليعة هذه الرمـــــوز، هي الشمس التي جاءت في الديانات الشرقية أنها تعطي الحياة وتحيي الموتى وتوجه الكون، هي نور العالم نور السماء والأرض، وهي آلهة العدالة ووليدة الحق، طاردة الظلم ومنسقة دورة الليل والنهار.

أما في معجم جبران، فكان لها دلالات شتى، فالشمس هي مصدر النور أي مصدر الحقيقة والعدل والإشراق، هي الطريق إلى الحقيقة الكبرى، الذات الإلهية الأم العظيمـــة فهو يقول "إن ذاتكم الإلهية كالشمس، ذاتكم الإلهية بحر عظيم"[14] أما البحر هو اللانهاية هو الذات الكبرى فهو الأعظم يحتضن كل الجداول وجبران يقول في هذا: "وصل الجـــدول إلى البحر وأتيح للأم العظيمة أن تضم ابنها الى صدرها مرة ثانية"[15] ولكم تحرق جبران لأن يحول البحر الذي في أعماق نفسه إلى ضباب كثيف، الذي ينعقد قطرا ثم يسير جدولا، "فالبحر طريق الحقيقة الأزلية تنطلق في السفينة التي تسيرها الريح نحو أفاق تتجاوز الأرض، وهي تقود إلى الخلاص وعندما تهب هذه الريح بعنف تضطرب أشرعة السفينة، فتأمر نبي أورفليس فيمضي معها لكنه لا يهبط الى العالم السفلي إلى الفراغ الراعب"[16] ونجد قول جبران عن الريح: "هل موت الإنسان هو أكثر وقوفه عاريا في الريح وذوبانه في حرارة الشمس...إن الذات الخفية التي تمثل حقيقتكم تقطن فوق الجبال وتهيم مع الرياح إنها الجبار الذي يوجه مصير البشر ويبدد الضباب ويذهب بالزبد، لكن البحر والشاطو فإنهما يظلان إلى الأبد"[17].

أما الضباب الذي يفارق الأرض عنـــد بزوغ الفجر من غير أن يترك ســـوى قطرات صغيرة من الندى، ويقول جبران في كتابه النبي: "وقد كنت بينكم مثل هذا الضباب"[18] فالضباب رمز الوجود الخام في تحولاته المستمرة وهو السديم لبداية الأشياء لا نهايتها الحياة وجميع الكائنات. إنما تتصور أولا في الضباب وليس في البلور، ومن يدري فقد يكون البلور ضبابا مجمدا هو القوة التي تولد وتحجب المنظور واللامنظور"والمطرة شيعت سفينة المصطفى بنظرها حتى توارت في الضباب"[19]

وعمد جبران إلى رموز أخرى، كالغاب والناي اللذان لونا قصيدة المواكب والأرقام و لاسيما أن الرقم **سبعة** كان له شأن كبير في كتاباته فقد ذكر لماري هاسكل أن دلالته مقدسة فقد "جاء في التوراة أن الله خلق العالم في أسبوع، وفي القرآن الكريم سموات سبع والبوذي يعتقد أن البيضة الكونية تتألف في شقها الأعلى من سبع سماوات يحل في أعلاها الكائن المثالي" [20] على حد قول المؤلف جميل جبر، وقد تمـــــنى لو يحول اللغة كلها الى

كلمات سبع وهي "أنت أنا، خذ، الله، الحب، الجمال، الأرض" [21] ونجد رموز أخرى مثل عشتروت وأدونيس وهي رموز ميثولوجية شعت في الشعر الرومنطيقي، فقد ذكر في قصة الأجنحة المتكسرة **عشتروت** قائلا: "والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على جدار الشـــرقي منه صورة فينقية الشواهد والبيانات محفورة في الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها وهي تمثل عشتروت ربة الحب والجمال جالسة على عرش الفحم ومن حولها سبع عذاري" [22]

إن الطبيعة قوة جبارة تكمن فيها قدرة الرب، واستعان جبران رموزه واستعاراته منها، فالطبيعة رمز للروح الكلية، فنجده يقول: "أنا أحاول أن أجد ذاتي من خلال الطبيعة، إن الفن بالنسبة لي أبعد من الأشياء التي نراها ونسمعها والطبيعة ما هي إلا جسد الله، شكل الله والله ما أنشده وما أحب أن أتفهمه"[23] وهو يقول أيضا أن الفن أن نفهم الطبيعة لا أن نقلدهـــا لأنها "محسوسة فما الحاجة الى تقليد الطبيعة وهي محسوسة لكل ذي حس؟ إنما الفن أن نتفهم الطبيعة ونؤدي معانيها للذين لا يفهمونها، الفن أن نؤدي روح الشجرة لا نصورها جذعا وفروعا وأغصانا وأوراقا تشبه الشجرة، الفن أن تأتي بضمير البحر لا أن نرسم أمواجا مزبدة أو مياها زرقاء هادئة، الفن أن نرى في المألوف ما ليس مألوفا، لذلك أبتعد في التصوير وفي الكتابة عن كل مألوف لأتوصل الى ما فيه من معان وألوان غير مألوفة"[24]

لقد طوف جبران قلمه، في معارف شتى وأساطير مختلفة باختلاف الأجناس ليصل بنا في الأخير إلى مجموعة قصص وخواطر شعرية وحوارية مسرحية اتسمت بالسحر والجمال، فقد عبر من خلالها برمزية بارعة عن حالات نفسية مبهمة ولدها إحساس المرهف المتطلع إلى ما وراء الوجود، وطعمها هاجس القبض على هلامية الحياة التي خيمت على نفسه، فقد استطاع أن يتخطى بإخراجه الأدبي عالم البصر واللمس واليقين ليلج في طموحه الفكري الذي يرمز إلى اللاشكل في مفاهيمه التي وأن تصورنا أننا قبضنا على حقيقتها فتطير وتنسحب كأنها نظرة عابرة وفجائية تؤدي معنى لحكاية رمزية أو أسطورة أو مقالة خطابية محورها العاطفة والخيال والرؤية الحدسية ليبدو أدبه فلسفة ترفض مقاييس الواقع الظاهر وتعتنق حيز اللامرئيات ولا منطق فتتلمس معضلات الإنسانية بالبصيرة والحدس.

الهوامش

1- ميخائيل نعيمة: جبران خليل جبران: حياته، موته، فنه، وأدبه دار صادر للطباعة والنشر بيروت، ط **5 1964** ص **211.**

2- جميل جبر: جبران في عصره وأثاره الأدبية والفنية بيروت لبنان ط**1** حيزران–يوليو **1983** ص **64.**

3- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران منشورات المكتبة العلمية الجديدة بيروت لبنان ج**2** دار صادر **1961** ص **55/31.**

4- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران **2** ص **12.**

5- د/ جميل جبر: جبران في عصره: وأثاره الأدبية والفنية ص **155.**

6- نفس المصدر، ص **155.**

7- نفس المصدر، ص **155.**

8- جميل جبر: جبران في عصره وأثاره الأدبية و الفنية، ص **155.**

9- ميخائيل نعيمة، جبران خليل جبران: حياته –موته –أدبه – فنه، ص **81/80.**

10- نفس المصدر، ص **81/80.**

11- جميل جبر: جبران في عصره وأثاره الأدبية و الفنية، ص **138.**

12- عدنان الذهبي: الرمزية في أدب جبران خليل جبران ورسمه، مجلة الأديب، يناير **1951.**

13- جميل جبر: جبران في عصره وأثاره الأدبية والفنية، ص **137.**

14- نفس المصدر، ص **138.**

15- جميل جبر: جبران في عصره وأثاره الأدبية والفنية، ص **140.**

16- نفس المصدر، ص **141.**

17- جميل جبر: النبي، ص **141.**

18- السابق، ص **5**

19- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران، كتاب النبي، ص **62.**

20- نفس المصدر، ص **62.**

21- جميل جبر: جبران في عصره و أثاره الأدبية والفنية، ص **143.**

22- مذكرات هاسكل، حوار **23** (النبي الحبيب نقلها الى العربية الأب لورانس فارس دار الجديدة) الأهلية للنشر والتوزيع، **1974.**

23 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران،كتاب الأجنحة المتكسرة، ص **78.**

24 – توفيق الصايغ: أضواء جديدة على جبران، منشورات دار الشرقية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان **1966**. ب.ط، ص **216**